

الرأى العام المصرى

بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

لا بد من تنبيه أستهل به هذا الموضوع : هو أنى أهملت الجانب السياسى فى بحثى هذا ، وأنا أول من يعترف أن هذا نقص وأنه يضيق مجال الكلام ، و يأخذ على الباحث متوجها رحيبا كان يستطيع أن يركض فيه ركضا طويلا ، ولكنا فى زمن حرب ، وللحرب مقتضياتها التى لا مفر منها ولا حيلة فيها ولا فائدة من محاولة تجاهلها ، والحرب عرض أو مرض إذا شتم ، يعترى الأمم ويقلب الأوضاع فيها ، ويعكس الآيات كلها ، فهى حالة لا يقاس عليها لأنها الشذوذ والاستثناء ، وقراتها تمر وترتك اثرها ولا شك ، ولكن المعول على حياة الأمم فى ازمة السلام ، وحياة الأفراد فى أوقات الصحة ، وإن كانت الحرب ، أو العلة ، قد أورثتها ما يخفى ولا يتعذر رده إلى أسبابه ، فى الأغلب والأعم ، من الآراء والاتجاهات وضر ذلك .

والذى فهمته من العنوان الذى اختاره قسم الخدمة العامة فى الجامعة الأمريكية ، وهو "الرأى العام المصرى" هو أن المراك بيان خصائص هذا الرأى العام ، وما يتميز به ، وليس الجانب السياسى إلا مظهرا يتخذ الرأى العام ، فى حالات وأوقات معينة ، والمظهر شىء ، والخصائص شىء آخر ، والعبارة بالخصائص التى تجعل هذه المظاهر ممكنة كالثمرة تخرجها الشجرة وتطرحها ، ولا سبيل إلى ثمرة بغير شجرة ، وقد تطيب الثمرة أو لا تطيب والمرجع فى ذلك إلى الشجرة ، وإذا أردت أن تجعل الثمرة أطيب وأنضج وأحلى ، فإن عليك أن تعالج الشجرة ، لا الثمرة .

من أجل هذا لا أرى أن إهمالنا الجانب السياسى للرأى العام فى مصر ، وفى زمن الحرب ، يضير البحث وإن كان لا ريب فى أنه يترك الحلبه أقل سعة .



وقد سبقنى إلى الكلام عن الرأى العام وبيان حقيقته والمناصر التى يتكوّن منها ، أ- تاذان جيلان هما الدكتور إبراهيم بيومى مذكور ، والدكتور محمد مظهر سعيد ، ولكنه فاتنى لسوء حظى أن أسمع محاضرتهما ، لعوائق لم تكن لى فى تخطيها أو تدليلها حيلة ، وكانت بحسبهما خليقا أن يكون عونا كبيرا لى ، ولكنى حرمته فلم يبق لى إلا أن أتوكل على الله وأسأله أن يستور ضعفى وقصورى .

سئل بعضهم عن الرأى العام ما هو ؟

فكان الجواب أنه الناس جميعا ما عدا نحن أى المتكلم والمخاطب .

وهذا الجواب يشى بالرغبة فى التظاهر بالاستخفاف بما يسمى الرأى العام وقد قلت "التظاهر بالاستخفاف" ولم أقل "الاستخفاف" لأن الحقيقة - على قدر ما أعلم - هى أنه ما من أحد فى أطواء ضميره يستخف أو يرى من حقه أن يستخف بقوة الرأى العام وإن تظاهر بخلاف ذلك . ولعل أصح التعبيرين أن نقول إن جواب صاحبنا مظهر لارغبة الطبيعية فى التميز ، أى الخروج من العموم ، والدخول فى الخصوص ، فان كل إنسان يشتمى أن يعد منفردا بمزية تبوئه مرتبة خاصة وسلاكه مع القليلين المتفوقين وترفمه عن طبقة الأكرزين العاديين الأوساط .

ولجواب صاحبنا على الرغم مما انطوى عليه وجه صحيح ، هو أن الرأى العام هو رأى الكثرة من الناس ، أو الجمهور أو الجماعة الكبيرة ، ولكنه ليس رأى الفرد الذى ينتهى إليه فيما بينه وبين نفسه ، أو الذى يقتنع به ويذهب إليه بعد البحث مع واحد أو اثنين أو عدد قليل محدود من الناس .

وعسى أن يسأل سائل : هل معنى هذا أن رأى الفرد وهو وحده فى أمر ما يخالف رأيه حين يكون فى جماعة كبيرة ؟ وهل وجوده فى جماعة كبيرة يدفعه إلى غير ما كان خليقا أن يذهب إليه وهو خال بنفسه .

وجوابى أن أسوق عبارة للباحث المشهور ما كس نورداو بمعناها لا بلفظها وهى من فصل له فى كتابه "الأكاذيب المقررة فى المدنية الحاضرة" وفى هذا الفصل يتكلم عن المجالس النيابية وجدواها وقد فرض أن مجلسا نيابيا كل أعضائه من طبقة العطاء والعباقرة فى كل باب ، مثل شكسبير ، وبيكون ، وجوتيه ، وكانت ، وداروين ، وبيتوفن ، ونابليون ، والاسكندر الأكبر ، وهومر ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو وأضراب هؤلاء من جميع الأمم والعصور .

وقال لنفرض أن خمسمائة من هذه الطبقة التى لم تجب الانسانية أرفع منها اجتمعوا فى صعيد واحد ، فإذا تكون النتيجة ؟ وقال فى جواب ذلك إن كل واحد من هؤلاء العطاء الذين يعنى الزمان مكان أندادهم ينفرد بمزية ، ويشبه الآخرين فيما عدا ذلك مما يعد صفات أو طباعا إنسانية عامة مشتركة ، فلشكسبير شاعريته ، ولكانت فلسفته ، وبيتوفن نبوغه فى الموسيقى ، ولالاسكندر عبقريته الحربية . وكل واحدة من هذه المزايا أو المواهب قائمة بنفسها مستقلة عما عداها ، لا تشبه الأخرى ولا تماثلها أو تقاربها أو تأتلف معها ولكى هؤلاء جميعا على تفاوت مواهبهم خلق واحد ، فطرته واحدة ، فإذا رمزنا إلى العنصر

الإنسانى المشترك بحرف "ع" وإلى كل موهبة ينفرد بها واحد منهم ويتميز بحرف خاص، مستقل اجتمع عندنا تحمينا "ع" وألف واحدة وباء واحدة وجيم واحدة وهكذا . والقاعدة الحسابية التى تعلمناها فى المدارس هى أن المختلفات لا تجتمع لأنها لا تأتلف ، وإنما يجمع ما هو من نوع واحد ، وكما أنك لا تستطيع أن تقول عندى خمس برتقالات إذا كان عندك برتقالة واحدة وتفاحة واحدة إلى آخره، كذلك لا تستطيع أن تجمع هذه المواهب المتفاوتة . فالنتيجة إذن هى أن تحمينا عين مجتمعة ، مؤتلفة ، تتكون منها كلمة أو قوة تقابل وتواجه وتقاوم مواهب متنافرة لا تتساير ، ولا تتعاون ، ولا تتجمع ، ولا تتألف منها قوة واحدة متأزرة، ومؤدى هذا أن العنصر الإنسانى المشترك بين هؤلاء العظماء المحشورين يتغلب بقدرته على الائتلاف على المواهب المنفرقة المختلفة التى يتميز بها كل منهم ، فلا يبقى لهذه المواهب فعل أو تأثير فيما يسفر عنه اجتماعهم من رأى ، وإنما يكون الفعل والأثر للعامل الإنسانى المشترك . ولا داعى إلى مسaire ما كس نورداو إلى غايته وهى أنه لا فرق بين مجلس نيابى من الأوساط العاديين ومجلس آخر من العظماء إذا اعتبرنا النتيجة ، وهذا بحث آخر لا يعنينا هنا فلانستطرد معه إليه ، وحسبنا الحقيقة النابتة وهى أن الجماعة تتأثر بقوة العوامل الانسانية المشتركة لا بالمزايا والمواهب الفردية ، لأن هذه لكونها منفردة لا تستطيع أن تقاوم ما اجتمع من تلك ، ومن هنا ما يسمونه روح الجماعة ، وقد لا يرضى الفرد عنها وهو بمعزل ، ولكنه وهو فى الجماعة ينساق معها عن رضى واختيار أو بقوة اندفاع التيار الذى لا يملك وحده صده .

ويجوز لنا الآن أن نقول أن الرأى العام هو مظهر روح الجماعة لا روح أفرادها كل على حده ، أو هو التيار الذى تحدته الخصائص المشتركة بين الشعب ، وقد لا يكون هذا تعريفا صليما منضوط الحدود ، وما أظن أن فى الوسع تعريف الرأى العام على وجه الدقة ، ولكنى أظن أن ما وصفته به ، وإن خلا من الدقة والإحكام ، كاف فى التعريف به وبيان المقصود منه .

وأعود إلى جواب من سئل عن الرأى العام فقال انه الناس جميعا ما عدانا ، فأقول أنه لا سبيل إلى اسقاط هذا الرأى العام من الحساب لأنه يسيرنا برغمنا مادنا مخلوقات اجتماعية بالطبع ، وليس فى وسع أحد أن يجحىف عزلة تامة ومهما بلغ من استقلال الفرد فانه مضطر أن يحسب لهذا الرأى العام حسابه ، فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل ، ولكن المرء منا أديبا أو سياسيا أو محاميا أو طبيبا أو معلما أو عالما ، فإن للرأى العام حسابه عنده ، سواء اعترف بذلك أو أنكره وكامر فيه .

وليس من الضروري أن يكون الرأي العام مخطئا في كل حال ، أو مصيبا في كل حال ،
فانه يخطئ ، ويصيب ، ويضل ويهتدى ، ولا ضابط لهذا ولا قاعدة ، ولكنه ، أخطأ
أم أصاب ، يفرض علينا اتجاهات عامة يتعذر التعرج عنها ولا معدل لنا عن مراعاتها
إلى حد ما اذا أردنا أن تكون حياتنا محتملة ، ودع عنك النجاح فان رضى الرأي العام شرط له
ولا سبيل اليه بغيره .

والآن نستطيع أن نقول كلمة في رأينا العام المصرى ، فكيف هو ، وماهى
خصائصه ؟ ...

وأبدأ فأقول أن خصائص الشعوب معظمها موروث ، وليس فى وسع شعب أن يتخلص
من أثر التاريخ الطويل والعقائد والتقاليد التى يتلقاها جيل عن جيل وما خلفته فى نفسه
أطوار الحكم المختلفة التى تعاقب عليه ، ولا شك أن للتعليم والتربية اثرهما فى التهذيب والصقل ،
ولكن العقل لا يغير الأصل ولا يعدل بالطباع عن متوجهها .

والذى يعرف المصريين معرقهم يستطيع أن يظن إلى اتجاه الرأي العام فى كل حال
فلا تخطئ ، فراسته ، وهذا كلام يصدق على كل أمة فى الحقيقة ، ومن أجل هذا ترى
كثيرين يستطيعون أن يعرفوا سلفا هل يقبل الرأي العام هذا الأمر أو لا يقبله ، وماذاعى
أن يكون مبلغ رضاه عنه أو تسامحه فيه .

والمصرى بطبيعته لين العريكة شديد التسامح طويل الاناة عظيم الصبر ولكن فيه عنادا
شديدا ، وبالحاجة قوية فيما يأخذ فيه ، ولا قدرة مجيبة على الاحتمال ، وفيه فكاهة يركب بها
كل شئ ، وروح فنية واضحة وإيمان عميق ، وسوء ظن تركته فى نفسه وكادت تطبمه عليه
حقب طويلة من الحكم الظالم المتعسف .

وليس فى الوسع بطبيعة الحال أن يرتب الانسان الخصائص القوية على نحو ما ترتب
الكتب على رفوفها ، فانها تتزوج وتتفاعل ويتسرب بعضها فى بعض كما تتسرت الموجة
فى الموجه ، ويكون أثر بعضها أوضغ وابرز فى حالات أخرى ، ولكننى أعتقد أن ما ذكرته
من الخصائص الكبرى هو أبرز ما يتميز به المصريون ويختلفون به عن غيرهم من الشعوب
ولست تعدم هذه الصفات فى أمم أخرى ، ولكنها فى المصريين معرفة فى القدم .

وعناد المصريين وقدرتهم على الاحتمال إلى حد حمل البعض على وصفهم بالبلادة ،
وعاداتهم فى تهوين الأمور بالفكاهة ، وركوب ما يكرهون بها — هذا فيما اعتد هو الذى
حماهم أن يندمجوا فى الأمم الأخرى . التى فتحت بلادهم وحكمتهم أزمنا مديدة وصان عليهم
شخصيتهم ، بل أفنى فيهم الأمم الفاتحة . وذلك على الرغم من عظم تسامحهم وفورط الدين
فى عريكتهم .

ونستطيع أن نقول أنه لا تناقض هنا ، فإن شدة تسامحه مرجعها الى شعوره الباطني بقوته الكامنة وقدرته على المقاومة الى ما شاء الله بغير عناء ، ولين غير يمكنه راجع الى الذكاء الفطري الذي يحول دون المغالاة بشيء ، ويعين على أخذ الأمور مأخذا سهلا ، وركوب الحياة بالفكاهة يوسع الصدر ويهون الأمور ويسير الاحتمال ، ومتى أطلقت على عدوك نكتة تجعله موضع استهزاء ومضفة في الأفواه فإنك تشعره باستخفاف ولا تشعر بغضب يتقدم ويدفعك الى الترق والعمل الأنرق .

ومن هنا نرى الرأي العام المصري يظهر بعاطفته - أي بالاعجاب أو الحب ، أو المقت والنفور ، أو الاحترام أو الاحتقار وبحكمه على الأمور ورأيه فيها أكثر مما يظهر بعمله ، أي أن الرأي العام المصري يجترئ في الأغلب والأعم بالعاطفة يظهرها ، والرأي يبديه ، والحكم يتجلى من موقفه ويندر جدا أن يجاوز ذلك الى فعل يفعله .

وقلما تتغير عاطفته ، لأنه يالفها ويمحبها ولأنه ينفر من التحول عما اعتاد كما يدل على ذلك تاريخه الطويل الحافل ، ويصعب أن يغير رأيه لهذا ، ولأن فيه كما أسلفت عنادا ولحاجة ، ثم لأنه سيء الظن يتلقى كل جديد أو طارئ بنظرة المستريب غير المطمئن .

وقد قيل فيه انه سريع النسيان ، وقد يكون هذا من التسامح ، أو لعله من الاصل أو الجهل ، أو لأنه يشغل بالحاضر عن الماضي ، على أني أشك في نسيانه وأرد ما يبدو من ذلك الى الكسل العقل وعسى أن تكون التربية القويمة كافية في علاج ذلك .

وتماز سيرة المصري بعمق إيمانه بالقضاء والقدر ، وقد طوفت في بلاد كثيرة ، وخالطت أقواما كثيرين من غير المصريين فلم أر مثل إيمان المصري بالقضاء والقدر وأحسب أن هذا هو الذي يكسبه هذا البلبل الذي لا نظيره ، ويمحي صبره أن ينفذ ، ويهون عليه كل ما يعانى ويعينه أيضا على التغلب على ما يكره .

وفكاهته مضرب المثل في البراعة وإصابة الممن ، وفي سرعة الخاطرها ، ولا أظن أن بي حاجة الى كلام في هذا ، وما أكثر ما يحا المصريون أثر عمل ، بل ضيعوا رجالا بنكتة والفكاهة كما تعلمون مظهر لصحة الإدراك ، ودقة الفطنة ، وتعدد جوانب النفس ، وكثير من فكاهة المصريين لفظي ، أي أن مداه على اللعب بالألفاظ المتشابهة أو المتقاربة ، ولكن كثيرا منها معنوي ، ينفذ الى الصميم ، ومن ولع المصريين بالفكاهة أنهم اتخذوا من النكتة فنا ، وكانوا يتساجلون فيها ، ويتنادرون ، وكانوا يعقدون لذلك حلقات وأكثر ما كانت تشاهد هذه المساجلات في الأفراح التي كانت تقام في الجليل الماضي ولا تزال هذا بقية في الأرياف ، وقد انحط هذا الضرب من النكتة حتى صار محفوظا لا فضل فيه للابتكار أو

سرعة الخاطر وحضور الذهن، ولكن النكتة المصرية ارتقت بعد أن خرجت من هذا النطاق التقليدي وعادت من وحى الفطرة وإلهام السجية، ومن اشتها المصريين بالفكاهة قال فيهم قائل أنه لو كانت الحرب بالنكتة لفتح المصريون لندن .

والفكاهة المصرية مظهر لروح الفن الأصلية العميقة في المصريين . وقد ينكر البعض أن المصريين مطبوعون على روح الفن، لثمة ما يرون من مظاهرها في عصرنا هذا، ولكنك لا تستطيع أن تنكر على مصر روح الفن وهذه آثار أجدادهم الأقدمين ما زالت قائمة. وليس من المعقول أن ينعدم روح الفن في أمة هذه براعات أسلافها الباقية على الزمن .

وتأمل طرب المصرى للغناء، وكيف يستخفه الصوت الشجي والشدو الجيد والايقاع الحسن . بل تأمل كيف يؤثر الأصوات المرتجاة على الأصوات المصوغة المعدة . ويفضل المعنى الذى يستطيع أن ينتقل من نعمة الى نعمة على البديهة، وارتجالاً، ليس هذا من روح الفن التى طبع عليها المصريون؟ وليس معنى هذا أن غير المصريين لا يطربون، فان هذا يكون حساء، ولكن حب المصريين للارتجال وتمضيلهم ذلك على الأصوات المحضرة التى يآثرها المعنى ويتقيد بها ولا يخرج عنها دليل على ما أذهب إليه، من انطباعهم على روح الفن .

وقد يعلل تفضيل الارتجال بأن الموسيقى ما زالت عندهم فنا لم يرتق إلى مرتبة العلم المضبوط كما صارت في الغرب على قول أهل العلم بذلك . وقد يكون هذا صحيحاً أو غير صحيح . فما أدري، فان مبلغ علمي بالموسيقى ان أسمع فأطرب، ولكن الذى أعلمه أن موسيقانا وان كانت لاتزال فنا، مضبوطة القواعد والأصول وليست فوضى، وانى على جهل أشك في أن تستطيع الموسيقى أن تصيح علماً محكماً كالحساب والجبر وأن تحتفظ بقيمتها الفنية ووقعها البالغ في النفس إذ فرجت من الفنون وانتظمت في سلك العلوم من أمثال الكيمياء والطبعية وما إلى ذلك .

وقد تكون مظاهر الفن في حياة المصريين قليلة، ولكن هذا من الجهل والفاقة، والعبرة على كل حال ليست بما عسى أن أقتنى في بيتي من صور وتحف وأنسق هنا وهناك من زهر وورد، وأقتنى من أثاث جميل، فقد يتسرى كل هذا إذا كنت صاحب مال، ولا يكون هذا دليلاً على ادراك لقيمتها الفنية والعبرة بالادراك والشعور وزعة النفس وقد تكون مظاهر ذلك ساذجة أو في نطاق ضيق، غير أن الذى عليه الماعول هو وجود الادراك وحصول الشعور. أما المظاهر فقد تكون راجعة إلى الطاقة والقدرة .

وكل هذا يبدو أثره في الرأى العام لان الرأى العام مرجعه الى الخصائص القومية، والمزج الذى هو ألعاب .

وقد لوحظ على رأينا العام أنه طويل اللسان ، ولست أرى هذا مستغربا أو بدعا ، فإن مثله يمكن أن يقال في كل رأى عام آخر، وطويل اللسان خير من طويل اليد. على أن الامر طبعى لأن الجماعة أجراء ، والمعهود أن الجماعة تكون أيضا أحط مستوى من الفرد وفى كل أمة أفراد ممتازون بسمو الأخلاق والآداب وعلو النزعة ، والافراد هم الذين يرتقون بالجماعات وايست الجماعات هى التى ترتقى بالأفراد .

وقد يكون هذا البحث غير ما كنتم تتوقعون ، ولكن الحقيقة أن الرأى العام ليس شيئا عاديا تستطيع أن تتناوله وترفعه قبل الصيون وتديره أمامها وتعرض جوانبه عليها ؛ واما هو تيارات من العواطف والآراء تصدر من الخصائص التى فطرت عليها الامة أو اكتسبتها على الزمن ، وتؤثر بمجردا أو بما تدفع اليه من عمل وأرجو أن لا أكون قد أخطأت خطأ كبير حين حاوات أن أرد الرأى العام المصرى إلى هذه الخصائص ، ولا أستطيع أن أدعى أن هذه هى كل خصائص المصريين من موروثه ومكتسبة ، فإن الاحاطة عيرة والاستقصاء شاق ، ولكنها حسبنا كمثال يقاس عليه .

إبراهيم عبد القادر المازنى